الرق وتجارة الرقيق فى دارفور

Slavery and the Slave Trade in Dar Fur

ر. د. أوفاهي R. D. O'Fahey

◇◇◇◇◇◇

مقدمة: هذه ترجمة (بتصرف) لشذرات مختصرة من مقال للبروفسيور ر. د. أوفاهي عن "الرق وتجارة الرقيق في دارفور" تم نشره في "مجلة التاريخ الأفريقي Journal of African History" في عددها الرابع عشر والصادر في عام ١٩٧٣م. ويعمل البروفسيور ر. د. أوفاهي أستاذا للتاريخ في قسم تاريخ الشرق الأوسط وأفريقيا بجامعة بيرجن بالنرويج. وبدأ اهتمام الرجل بدارفور وتاريخها في عام ١٩٦٨م، ونشر نتائج أبحاثه في مقالات كثيرة وكتب عديدة منها كتاب "الدولة والمجتمع في دارفور" و "تاريخ سلطنة دارفور".

المترجم.

***

شاعت مؤسستا الرق وتجارة الرقيق في غالب مناطق شرق السودان، وفي ودارفور في عهد السلالة الحاكمة كيرا (١٦٠٠ – ١٨٧٤م)، ولم يكن عهد السلطان على دينار استثناءً من تلك القاعدة.

وفي سنوات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مورس الرق وتجارته على نحو واسع جدا في مملكة كيرا. ويبحث هذا المقال في الأصول التاريخية للرقيق وتجارته

في دارفور، وعن دور الرقيق في السلطنة وعن استخدامهم كسلع. وربما لا يكون من الحكمة أن نتوسع في تعريف ما هو المقصود بكلمة "رقيق" في دارفور وذلك لعدم دقة المصادر، والتي أتى جلها مما سجله الرحالة الذين عبروا تلك المنطقة، ومن الإرث الشفاهي، وأحيانا من بعض الوثائق العربية. ولكن من الثابت أن لكلمة "رقيق" في دارفور معان عديدة فقد كانت تستخدم مرادفة لكلمات مثل "عامل" و"جندي" و"محظية" وكاتب / موظف".

ويعيش اليوم أفراد قبيلة الفور (وهي أكبر القبائل غير العربية في دارفور، والتي بلغ سكانها بحسب إحصاء عام ١٩٥٦م ٣٠٣٠٠٠ نسمة) في غرب وجنوب جبل مرة، ويعدون من ناحية لغوية بحتة قبيلة منعزلة، إذ يصنف الخبير اللغوي قرينبيرج لغتهم ضمن مجموعة جانبية صغيرة من مجموعة اللغات النيلية – الصحراوية، وهي لغة لا تمت بأي صلة لأي من اللغات المستخدمة في دارفور.

بدأ الكيرا (والذين أتوا من الكنجارة، أحد أفرع قبيلة الفور) في توحيد الفور القاطنين حول جبل مرة في القرن السادس عشر، غير أنهم لم يعرفوا في التاريخ إلا بعد منتصف القرن السابع عشر تحت قيادة السلطان سليمان. وكان سليمان ابنا لامرأة من الكيرا ووالد عربي، وقد نجح في طرد التنجر حكام دارفور السابقين، والذين ارتبط حكمهم بإدخال الإسلام كدين للدولة.

(توسع أوفاهي في مقدمته التاريخية في ذكر صلات دارفور بالقبائل التي كانت تعيش على ضفتي النيل مثل الدناقلة والشايقية وغيرهم، واستشهد بمقالات للمؤرخ هولت عن أصل الفونج وأخرى عن الفور تبحث في مفهوم "الغريب (أو الأجنبي) الحكيم" في التراث الدارفوري، وهو ذلك الرجل الذي يقدم على أرض متوحشة فيدخل فيها عادات جديدة، خاصة فيما يتعلق بأمور تناول الطعام، ويتزوج ابنة الحاكم، ومن بعد ذلك يحكم البلاد أحفاده، ولكن بأسلوب وطريقة

مختلفة. وأشار إلى إدخال الفور في تراثهم الشفاهي للجوانب الإسلامية في مفهوم "الغريب/ الأجنبي الحكيم" ويربطون بينه وبين دخول الإسلام لبلادهم. ويعتقد أوفاهي أن هذا "الغريب/ الأجنبي الحكيم" قد أتى لدارفور في بداية القرن الثامن عشر مع هجرات بعض النوبة (المسلمين والمسيحيين) وأفراد من القبائل التي تعيش على ضفتي النيل في شمال السودان، والتي بدأت في القرن الخامس عشر على أقل تقدير. وهنالك دليل أثري واحد لا يتعدى بضع أوعية خزفية يشير إلى وجود النوبة المسيحيين في دارفور (في منطقة عين فرح) وتشاد. كما أن لقبيلتين في دارفور(هما الميدوب والبرقد) تراث مستمد من النوبة الذين كانوا يقطنون دنقلا العجوز. ومع توسع سلطنة "كيرا" في القرنين السابع عشر والثامن عشر أقبل التجار من كل صوب للاستفادة من فرص التجارة المتاحة، وكانت تجارة الرقيق هي أكثر أنواع التجارة ربحا. المترجم).

وازدهرت في نهاية القرن السابع عشر تجارة الرقيق من دارفور إلى مناطق النيل ومصر، وبدأت مع نمو وتوسع تلك التجارة تجمعات من بعض أفراد القبائل التي كانت تعيش على ضفتي النيل في تكوين مجتمعات مستقرة لها في دارفور وكردفان مثل كوبي وسويني وبارا والأبيض. واستمرت تلك التجارة متأرجحة بين النمو والانكماش حتى قضى الزبير على سلطنة كيرا الأولى في عام ١٨٧٤م.

وسلكت تجارة الرقيق في دارفور نمط وطراز النِخَاسَةُ التي كانت سائدة في غرب أفريقيا وليس شرقها، إذ أن تجار الرقيق في دارفور لم يكونوا هم من يصطادون الرقيق بأنفسهم. وخلافا لما كان عليه الحال في بحر الغزال في منتصف القرن التاسع عشر، لم تكن دارفور أرضا مستباحة سياسيا ليس عليها من قيادة أو سلطة سياسية، وكان يقوم بعمليات جلب المسترقين فيها رعاة الأبقار من العرب الرحل في جنوب دارفور، أو جنود مسلحون يمولهم السلاطين. وبما أن

سلطنة كيرا كانت في غضون كل سنوات القرن الثامن عشر في حالة قتال لا يتوقف، فإنه من المنطقي أن نفترض وجود تدفق مستمر من أسرى تلك الحروب المتواصلة والذين كان بعضهم يباع للنخاسين أو يستبقى لخدمة السلاطين.

وليس هنالك وثائق مكتوبة عديدة عن غارات قبائل رعاة الأبقار من العرب الرحل في جنوب دارفور لجلب المسترقين، غير أن المؤرخ محمد بن عمر التونسي (والذي زار دارفور في عام ١٨٠٣م) يميل إلى أنهم شاركوا في حملات جلب الرقيق من وداي (الآن في تشاد) وجنوب دارفور. وكان لأفراد تلك القبائل مسترقين يستخدمون في الزراعة ويسمون "بندلا" أو "مندلا ". ورصد الرحالة الألماني جوستاف ناختيقال في كتابه "الصحراء والسودان" وهو في طريقه للفاشر عاصمة كيرا في عام ١٨٧٤م عددا من أفراد قبائل رعاة الأبقار من العرب الرحل وهم في حالة فقر مدقع، ولكنهم رغم تلك الحالة كان بمقدور الواحد منهم شراء حصان بثمن اثنين من مسترقيه.

وقارن المؤرخ محمد بن عمر التونسي بين نظام الغارات العسكرية لجلب الرقيق الذي كان يعمل به في وداي مع ذلك الذي كان مستخدما في دارفور، فذكر أن نظام الغارات العسكرية تلك في دارفور كان "أكثر حرية" في دارفور منه في وداي، إذ أن الأخير كان حكرا على فئة قليلة من الحكام والمتنفذين وعلية القوم. ورغم أنه كان بإمكان أي فرد في سلطنة دارفور أن يلتمس من السلطان (بعد أن يقدم له هدية مناسبة!) أن يسمح له بالقيام بـ "غزوة" على أراضي القبائل الوثنية، إلا أنه كانت هنالك فيما يبدو فئة متخصصة في ذلك النوع من العمل، وذكر المؤرخ التونسي منهم واحدا اسمه أحمد تكتك كان قد قاد نحو عشرين من تلك الغزوات. وكان بعضا من علية القوم في دارفور يقومون بمثل تلك الغارات، ذكر منهم التونسي حفيد السلطان محمد تيراب، ومحمد دلان والذي قاد غزوة لجلب الرقيق في حوالي عام ١٨٠٣م أَلَّفَ شاعر في تمجيدها أغنية حماسية.

وكان السلطان يسمح لرعاياه سنويا بالقيام بستين أو سبعين من تلك الغزوات. وكان السلطان يحدد لقائد الغزوة (ويطلق عليه "سلطان الغازي") طريق ومسار غزوته المنطلقة من دارفور، ويحدد له أيضا القبيلة التي يجب أن تغزى ويؤخذ أفرادها كرقيق.

ويبدو أن القيام بحملات لجلب الرقيق كانت وسيلة ملائمة يلجأ إليها أفراد من علية القوم والمتنفذين عندما يحين أوان تقاعدهم أو عزلهم عن العمل السياسي المحفوف بالمخاطر (ضرب المؤلف هنا مثالا أو مثالين لبعض الحالات. المترجم).

وذكر المؤرخ التونسي أيضا أنه عندما يسمح السلطان لمن يرغب في القيام بغزوة لجلب الرقيق (والتي تتم عادة قبل موسم هطول الأمطار) يمنحه السلطان أولا حربة تسمى السلاطية، ثم يشرع "سلطان الغازي" من بعد ذلك في عمل التحضيرات اللازمة من تجميع لأفراد الغزوة (ويعتمد عدد هؤلاء على شهرة قائد الغزوة) ويدخل في مفاوضات مع أثرياء التجار لتمويل الغزوة مقدما مقابل الحصول لاحقا على عدد ممن يتم اصطيادهم من المسترقين. وكان نسبة هؤلاء المسترقين الممنوحين للتجار تعتمد على درجة المخاطرة التي هم على استعداد لتحملها، فقد يسلم التاجر ستة من المسترقين في الجنوب إن رافق الغزوة في رحلتها جنوبا، بينما يعطى فقط نصف ذلك العدد من المسترقين إن آثر السلامة وفضل استلام "البضاعة" بعد جلبها للفاشر مثلا.

وكان أمر "تصريف البضاعة" بعد جلبها أمرا بالغ التعقيد. فقد كان قائد الغزوة "سلطان الغازي" يستخلص لنفسه كل المسترقين الذين يهبهم له الزعماء المحليون في المناطق التي يمر بها، وكل من استسلم دون مقاومة لجنود الغزوة. وكان هؤلاء الجنود في غضون معاركهم (والتي قد تستغرق ثلاثة أشهر) يقيمون "زريبة" ضخمة من النباتات الشوكية ليحبسوا فيها من يتم اصطيادهم أو أسرهم من المسترقين. وفي يوم توزيع المسترقين يقوم قائد الغزوة بالجلوس في وسط تلك

"الزريبة" ويبدأ في عملية التقسيم لنفسه ولمولي حملته من التجار، ويحتفظ بعدد من المسترقين كـ "جباية" أو هدية للسلطان ومن عاونوه للوصول إليه، ثم يوزع البقية على جنوده.

وكان بعض تجار الرقيق قد توغلوا جنوب دارفور لدار فرتيت حتى وصلوا نهر مبومو (والذي يفصل حاليا بين جمهورية أفريقيا الوسطى والكنغو الديمقراطية. المترجم). ولم تكن تلك الغارات عنيفة بالضرورة، فقد كان بعض زعماء القبائل التي يزمع النخاسة الدارفوريون اصطياد المسترقين منها يمنحون للسلم والتفاوض ويمنحونهم عددا من أفراد قبيلتهم (والذين يكونون عادة من المجرمين المعروفين أو ممن يرغبون في التخلص منهم) كمسترقين تجنبا للدخول في مصادمات عسكرية معهم. وكان أمر قبول أو رفض عروض تلك القبائل بيد "غازي السلطان".

وكان المسترقون المجلوبون لسلطنة كير يصدرون لخارجها، أو يبقون فيها حيث يؤدون أعمالا متنوعة كالخدمة في المنازل أو كمحظيات أو كجنود أو كتبة أو كمزارعين. وكانت هنالك أيضا رغبة عند السلطان في زيادة عدد سكان دارفور بجلب ذوي الخبرة "للإقامة" والعيش بصورة مستدامة في دارفور، وهذا مما زاد في أهمية الرقيق في السلطنة، والذين يقسمون إلى طبقتين: طبقة تعمل في الفاشر أو عند السلطان أو أقربائه، وتشمل الطبقة الثانية كل ما عدا هؤلاء. وكانت توجد في قصر السلطان مدرسة يقصدها الصبية من الرقيق (والصبية "الأحرار" أبناء القبائل التابعة للسلطان من غير الفور) وكانت مهمة تلك المدرسة العمل على تدريب هؤلاء الصبية لخدمة السلطان وعائلته وليغدوا حراسا وجنودا وخفراء وسعاة وضاربي طبول. ومن ناحية سياسية كانت فئتي الخصيان والمحظيات تعد من أهم فئات خدم السلطان، وكان يعمل جل هؤلاء في خدمة السلطان وحريمه في الأمور الشخصية.

ويمكن القول في الختام أن وجود الرقيق كان ضروريا من أجل تسيير الحياة الاقتصادية والسياسية بكفاءة في الدولة وفي الجهاز الإداري بها، والذي كان يتركز تماما في شخص السلطان. فقد كان السلطان يحصل على دخل كبير من الرقيق وذلك عن طريق الضرائب التي كان يفرضها على مالكيهم، وأيضا مما كان يحصل عليه من صائدي وتجار الرقيق، ومن مبيعات الرقيق المباشرة لمصر التي كان يقوم بها مُوكَليه في القاهرة.

obeikan.com